الاحلام والروح

تحت هذا العنوان قرأت في مقتطف ابريل ١٩٤٥ مقالاً لحضرة الأديب الأستاذ احمد فهمي ابي الخير واستخرجت ما فيه من اقوال لا تقف لدى محك العلم الحديث الذي لا يثبت أمامه شيء مما يخرج عن دائرة الطبيعة . والعقل لا يقتنع بأن وراء الطبيعة شيئاً غيرها إذ ليس تحت ظاهرات تدل على وجود شيء وراءها

يقول الأستاذ ابو الخير : « الانسان في الواقع جسد ونفس وروح »

اما انه جسد فهو (كما قال) ما نرى ونلمس . واما انه نفس وروح، فليس في ظاهراته ما يدل على شيء يسمى نفساً او روحاً . والنفس والروح في امتناء لفظان مترادفان لشيء لا نعرف ما هو ، ولا تعريف علمي له ، ولا أدلة حسية على وجوده

على ان الذي نعرفه جيداً ، ويعرفه كل بشر عاقل هو ان الانسان مؤلف من ثلاث مقومات : جسد ، وحياة ، وعقل . اما الجسد فمادة محسوسة بالحواس الخمس لا شك في وجودها . واما الحياة فعمل كيماوي من اعمال المادة . وهذا العمل يظهر لنا في توالد الاحياء ونموها وموتها وفي تحركها ايضاً . هذه هي ظاهرات الحياة في الانسان والحيوان والنبات . واما العقل فهو ايضاً عمل فيزيولوجي من اعمال خليات الدماغ ، وظاهراته التصور والتخيل والتذكر والاستدلال الى غير ذلك مما يسميه علماء العقل « القوى العقلية »[1]

الجسد يرتد بعد الموت الى عناصره الكيميائية التي تؤلف منها . وحركة الحياة تبطل بعد الموت باضمحلال الآلة التي كانت تتحرك بها . كما ان سير السيارة يبطل بتلف المحرك وسائر ادوات السيارة . وكذلك العمل العقلي يبطل بطلاناً كلياً بعد الموت بتوقف حركة الحياة في الدماغ . ويمكن ان يتوقف العمل العقلي برهة بتوقف حركة الخليات الدماغية الوقتي : إما بفعل المخدر او المسكر او النوم العميق الذي يرتاح فيه الجهاز العصبي كله من العمل . وليس النوم بالسر

(١) راجع مقال « عالم المجهول » بمقتطف مايو ١٩٤٥

العويص الذي يحتاج الى تفسير . فما هو إلاّ هذه الراحة . وأما كيف يحدث في كتب الفسيولوجيا تعليل واضح له

غير هذه المقوّمات الثلاث لا نرى في الانسان مقوّماً رابعاً يسمى روحاً او نفساً أو أي اسم آخر . وما طرأت فكرة الروح على الانسان الاول الاّ لما صار يرى الاحلام ويتذكرها . فكان اذا رأى في المنام طيف ابيه الميت ثم تفقده في الصحو في رمسه ولم يجد الاّ جيفة متهدمة ، يحار في فهم هذا الطيف وفي تفسير سره . فكان يظنه شيئاً موجوداً حقيقة . ولكنه لا يفهم سره . فسماه روحاً او نفساً . وأخيراً لما نبغ الانسان في العلم ، صار يفهم ان هذا الطيف الذي يراه في الاحلام او في الرؤى التخيلية ما هو الاّ خيال من اختراع المخيلة لا يخرج عن كونه عملاً من اعمال خليات الدماغ . فعالم الاحلام والارواح هو في كرة الدماغ وليس في خارجها البتة .

***

نحن نعترف بوجود مادة الجسد لاننا نشعر بها . ونعترف بوجود الحياة لاننا نحس بظاهراتها كالتوالد والنمو والموت ، وان كنا لا نزال نجهل سر الحياة . ونعترف بوجود العقل لاننا نحس او ندرك أفعاله كالتصور والتذكر والاستدلال الخ . ولكننا لا نحس بوجود ظاهرات تدلنا على وجود شيء رابع فيما يسمونه روحاً .

ولذلك نسأل الذين يدّعون انهم يستحضرون الارواح او يحاولون اثبات وجودها — نسألهم ان يخبرونا «ما هي الروح»

لا نستطيع ان نثبت لي وجود شيء قبل أن تخبرني ما هو هذا الشيء الذي تريد أن تقنعني بوجوده .

يقول حضرة الاستاذ ان النفس (او الروح) جسم اثيري مطابق تمام المطابقة للجسد المادي خليةً خليةً . يعني ان للانسان بدنين متداخلين بدن مادي مؤلف من عناصر كيميائية وبدن أثيري مؤلف من الاثير . وبحسب هذا الزعم يمكن أن ينفصل البدنان الواحد عن الآخر : إما بالموت وإمّا في الحياة بظروف خاصة . فمع أي البدنين تذهب الحياة ؟ ومع أيهما يذهب العقل ؟ أم ان كلاً من الحياة والعقل ينشطران شطرين بين البدنين .

وما لنا ولهذا التفنيد في الزعم . نسأل الزاعمين ما هي الظاهرات المحسوسة الدالة على وجود بدن اثيري متغلغل في البدن المادي ؟ — لا ظاهرات البتة .

بل قبل التماس الدليل على البدن الأثيري نطالب اثبات وجود الاثير نفسه . الأثير نفسه لا ظاهرات له البتة ، تدل على وجوده . وقد حاول احد العلماء الكيماء هو ميكلسن اكتشاف

سرعة الأجرام في الأثير بعملية حاذقة . فأخفق . لان العملية اسفرت عن عدم وجود اثير. وكانت عمليته هذه سبباً في اكتشاف اينشتين ناموس النسبية.

وقد افترض علماء القرن الثامن عشر وجود مادة خفيفة لا وزن لها تملأ الفضاء قابلة للتموّج سموها اثيراً ، لكي يعللوا بها بعض ظاهرات الطبيعة . فكون فرض الاثير يسهل تعليل بعض الظاهرات الطبيعية، لا يثبت وجود الاثير . لانه متى امكن تعليلها بدونه يسقط. ولذلك لما امكن اينشتين وغيره من العلماء ان يفسروا اكثر تلك الظاهرات من غير الاستعانة بالأثير، قالوا استغنينا عن فرض الأثير.

الأثير مفروض فرضاً ولا برهان حسي عندنا على وجوده . ومادام لا برهان حسي عندنا على وجوده ، فلا قيمة للزعم ان للانسان بدناً اثيرياً وهو النفس او الروح .

وبناءً على ما تقدم لا قيمة لدعوى بعض الروحانيين انهم استطاعوا تصوير هذه الأرواح الأثيرية أو هذه الابدان الاثيرية . ولا قيمة لكل ما يقوله بعض الناس المحسوبين علماء مما ذكروا من أدلة وبراهين وما ادعوه من مشاهدات وشواهد لزعمهم من رؤى وأحلام ذات شأن . لأن الاساس الذي يبنون مزاعمهم عليه وهو الأثير لا وجود له او على الأقل لا اثبات لوجوده . وما تلك المزاعم والرؤى والأحلام الاّ اوهام في الأدمغة فقط . واما إذا راموا ان يفرضوا فروضاً ويؤيدوها بدعاوى مشاهدات ورؤى واحلام، فيمكن اعتبار جميع خرافات العوام السذج ايضاً مشاهدات تؤيد تلك الفروض وتؤيد ما تشاء من الوف الفروض التي لا نهاية لها .

الانسان يستطيع ان يعلم كل ما يدخل الى دماغه عن طرق مشاعره الخمسة ، وجميع حواسه الباطنة ، ومدركاته العقلية مستمدة من معلومات تلك المشاعر ومستندة اليها . ومشاعره لا تحس الاّ فيما هو من طبائع المادة فقط . لا تحس شيئاً خارجاً عن المادة . وبذلك لا يمكن ان يعرف العقل شيئاً خارجاً عن المادة . فان كان الأثير ضرباً من الهيولى (اصل المادة) مهما كان لطيفاً، فلا بد من ان تحس به حواسنا ولو بطريقة غير مباشرة كالكهربا والمغنطيسية والجاذبية . وحينئذٍ يقع تحت حكم العقل وتصرف قواه . واذن فالبدن الأثيري بهذا الاعتبار ليس إلاّ مادة قابلة التغير والانحلال والتفكك ، ولا يمكن هذا ان يتصرف تصرفاً مخالفاً لنواميس المادة . فلا يمكن ان يوجد في مكانين في وقت واحد، ولا يمكن أن يتمرد على الزمان والمكان . فلا يمكن أن يكون في الماضي والمستقبل معاً . ولا يمكن أن يعمل عملاً خارقاً مما ينسب الى الارواح من الخوارق .

نقولا الحداد

(٤) في رواية أهل الكهف يصرخ « هرموش » في وجه صاحبه قائلاً « كفى هراء، ولدي قدمات ولا شيء يربطني بهذا العالم ، هذه الحياة الجديدة لا مكان لي فيها » فيجيبه صديقه قائلاً بعد حوار « لا تفكر في هذا ، عد كما كنت أمس ، واسخر مما تسمع ، هاته الأعوام الثلاثمائة إن هي إلا كلمات وأعداد وأرقام ، ماذا تستطيع الأرقام أن تغيّر من احساسك بالحياة » .

وفي قصة الالتفات إلى الوراء يعود بطل القصة الى « البدروم » يجيل الطرف في نواحيه فيناجي نفسه قائلاً : هاهو ذا مكاني الوحيد، هاهو ذا المكان الذي احتواني قبل ثمانية عام فلا بق فيه إلى الأبد ، لقد مات الماضي ، ولم يعد لي مكان ولا معنى في الوجود ، لا أنا ميت مع الأموات ولا حي مع الأحياء

(٥) في رواية أهل الكهف يودع « مشلينا » الأميرة « بريسكا » الوداع الأخير قائلاً : « الآن أرى نصيبي وأحس بعظم ما نالني ، لا يموش ولا يمليخا » . وزنا مثل هذا ، إن بيني وبينك خطوة ، بيني وبينك نصف ليلة ، والليلة أجيال (كذا) أمدّ يدي إليك وأنا أراك حية أمامي فيحول بيننا كائن جبار عجيب هو التاريخ».

وفي قصة الالتفات إلى الوراء يدور حوار بين بطل الرواية وبطلتها يقول الأول فيه « إني لأشعر بالوحشة الجاثمة على صدري . أليس موقفي من الحياة أشد وأعجب من موقف أي إنسان على الأرض ؟ موقف تُشل الألفاظ وتستفلج الكلمات في وصفه ، فلم لا أكون مستوحشاً ومستهجناً كل شيء حتى وجودي وتسمي أيضاً » ويقول لها « إن لطفك ودعتك وحنانك تكاد تنسيني حقيقة الأمر الواقع . وتكاد توهمني ان في طوقي الاندماج في جيلكم ونسيان الكائن التاريخي العجيب فأكون مثلكم أشعر بمثل ما تشعرون ، ولكني سمعت خطبة في الذياع[1] دار مذيعها البارع حول قصتي أقنعتني أن من العبث إزالة الوهم منزلة الحقيقة . إذن ما أبعد الشقة بيننا ، بل ما أبعدها بيني وبينك».

(٦) يجد « مشلينا » أحد أبطال أهل الكهف في عنق الاميرة « بريسكا » الحفيدة ذات الصليب والسلسلة الذهبيين اللذين أهداهما إلى « بريسكا » الجدة

وبطلة قصة الالتفات الى الوراء تجد في عنق بطل الرواية سلسلة ذهبية فيها ايقونة بداخلها صورة جدتها خطيبته

(٧) في رواية أهل الكهف يقول المربي « غالياس » للاميرة « بريسكا » تنبأ عرّافه ساعة مولدك بأنك ستشبهين ابنة الملك دقيانوس الأميرة المقدسة خلقاً واعاناً، فتسأله بلهفة:

(١) تنبأ مؤلف قصة الالتفات الى الوراء بالمذياع منذ عام ١٨٨٧

«ترى هذا الرجل قد سبق ، أو تراني أشبهها حقيقة ؟ ما أنفاك يا غالياس ، انك لا تحس مبلغ وشي في صورة تلك التي يزعمون اني أشبهها . أصحيح يا غالياس ان هذا العليب الذهبي الذي اخذه في جيدي منذ الطفولة كان صليبها » ؟

وفي قصة الالتفات الى الوراء تقول والدة بطلة الرواية لبطل الرواية « تدعوك ظروف الحال وسرعة تقلبه الى معرفة من هي ابنتي وما هو سرها ، فأنا أقول لك انها بنت حفيدة خطيبتك واننا أسميناها باسم جدتها البعيدة تيمناً بذكراها ، فلما كبرت ابنتي أخذت تبحث عن كل شيء له علاقة بجدتها ، وكان في جملة ما وجدته في متروكاتها خطابات منك لجدتها وصورة لك احتفظت بها ، كما وجدنا في عنقك سلسلة ذهبية فيها أيقونة عليها صورة خطيبتك الجدة » .

(٨) في رواية أهل الكهف تخاطب الأميرة بريسكا قائلة ان ابنة دقيانوس الاميرة القديسة كانت تقول كثيراً أو تضمرها على الروايح انها مرتبطة بعهد مقدس لن تحنثه .

وفي قصة الالتفات الى الوراء قالت والدة بطلة الرواية عن ابنتها « لقد أقامت خطاباتك لجدتها صورة لك في ذهنها ولذلك كانت تقول انها عاهدت النفس ألاّ تتزوج إلاّ اذا عثرت على رجل يضارعك في النبل وسموّ الأخلاق .

(٩) تستيقظ عوامل سعادة الحياة ، ويشع الفرح في نفس بطلة قصة الالتفات الى الوراء بعد اكتشاف شخصية الرجل الذي أحبّ جدتها بأمانة واخلاص فترتمي بين ذراعيه تهبه قلبها وتقول له « كنت أعتقد أحياناً ان روح جدتي يستقر فيّ . وكثيراً ما كنت أتوهم أني هي ، وهي أنا ، وان لا أحداً منا يعرف من هو الآخر .

وفي رواية أهل الكهف تقول بطلة الرواية لبطلها « انك تمزج شخصيتي بشخصية جدتي ، انك لا تراني أنا ، بل تراها هي فيّ ، نعم وجدت ورأيت وأحببت كل ما هو لها »

(١٠) تعود به الى الكهف تبحث عنه بين الجثث فاذا به يرد صوتها بصوت خافت فتأخذ رأسه بيديها وتدنوه بلهفة جنونية الى الحياة قائلة « عش » عش لي لا تمت ، اني أحبك » فيجيبها « لا نفع الآن بعد أن فعل الزمن فعلته ، فتقول « ان القلب أقوى من الزمن » وان ليس يهمها أن يكون حبه مصوباً الى الأميرة جدتها التي تشبهها وتقول من يدري لعلي هي ان هذا الشبه ليس مصادفة ، ومقابلتنا ليست مصادفة كذلك ، انك بعثت لي وبعثت أنا لك بعثاً من نوع آخر » .

وفي قصة الالتفات الى الوراء تخاطب بطلة القصة بطلها قائلة « ألست تعتقد أن الروح يعود أحياناً الى هذا العالم ليتم العمل الذي كان قريباً من غاية الوجود ؟ أقول لك اني كنت